وهي على ولعها بحديث الأكاذيب الشائعة في أخلاق الناس وعودتها إليه آونة بعد آونة لَمْ تنعِ على الناس أكاذيبهم قط بمرارة الناقم واستخفاف المتشائم، وإنما تتحدث بها كما تتحدث بصفحةٍ من الطعام الشهي لَمْ يتقنها الطاهي … ولا حرج أن تمضي في حديث انتقادها بعد ازدرادها.

فهي لهذا يصح أن تُسمَّى «وثنية» في تقويم مقاييس الأخلاق، ولا يصح أن تُسمَّى متشائمة أو ناقمة على الناس.

أما مذهبها في «الكرامة» فمذهبٌ خليقٌ أن يخيف مَن يحب لها الكرامة، ويود أن يأوي من كرامتها إلى حصنٍ منيعٍ على الطراق.

وأحسن ما توصف به الكرامة على مذهبها أنها «كسوة اجتماعية» لا يخلعها المرء في المجالس ولا يلبسها ممزقة أو مرقعة أو موصومة، فعيوب الكرامة وعيوب الكساء سواء في هذا القياس!

إذا قيل أمامها إن فلانة أباحت نفسها لخادمها قالت — وهي تزعم المناقشة حُبًّا للمناقشة: إن المرأة قد تهفو هذه الهفوة وهي لا تنظر إلى مثل ذلك الرجل إلا كما تنظر إلى حذاء، وليس كل رجل يصل إلى فراش المرأة يسودها، بل هو قد يكون خادمها في ذلك الفراش.

وإذا قيل لها إن فلانًا ضرب حبيبته قالت: وهل ضربها إلا لأنه يحبها؟ إن المرء ليضرب نفسه في الحائط إذا بلغ به الغيظ ذلك المبلغ، لو كان ضرب النفس يشفي غلة المغيظ!

وإذا قيل لها إن امرأة في التاريخ أو في قيد الحياة تهالكت على اللذات قالت: إن المرأة لا تتهالك على اللذات إلا أن تفقد الرجل الذي يفوق اللذة في روعها، فتحب الرجل لأجل اللذة بدلًا من أن تحب اللذة لأجل الرجل الذي تهواه وتستكين إليه.

وما نفرت قط من مذمة خبيثة عن مبدأ وعقيدة، وإنما تنفر من جميع الأشياء التي تأباها كما ينفر المرء من طعام يعافه؛ فهي مسألة ذوق ورغبة وليست مسألة شرف واعتقاد.

ومثل هذه الكرامة لن تعصم صاحبها أن يقارف أخبث المنكرات كلما حلت له وغفلت عنه عين الرقيب.

ويحار طبيب الأخلاق كما يحار طبيب الأبدان في إيواء هذا المزاج إلى مأواه من الصحة والداء، أفمَن كانت كذلك في نزغاتها وخلجاتها أتكون في رأي الطب امرأة سليمة